وفي قصة «سلة الملوخية» تنبعث الحياة في الجثة (كومة الملوخية) عندما يقرر الراوي أن يضحي بالثلاثين قرشاً، وهي آخر ما يملك، ليحول الجثة الى نسغ للحياة. وفي قصة «الخبز المر» نجد «أبو خميس» يموت ببطء ولا يرى في نفسه إلّا وسيلة لحياة الآخرين.

ولكننا نلمس على الفور حدود هذا التمرد، وهذا الانتصار. ان اقتفاء أثر الأب، بالنسبة للنجار الصغير، ليس اتباعاً لنصر حققه الأب بكونه نجاراً، بل لاندراج الأب في سياق الاستشهاد ــ الموت، الذي يملأ حياة الأم ــ والذي تسرب منها الى الصبي. وشراء اللحمة لتحويل الملوخية الى نسغ للحياة يبشر بأربعة أيام من الجوع. كما أن موت «أبو خميس» لم يكن الوسيلة المثلى لإنقاذ زوجته وبناته، فها هو يموت، وتظل الزوجة والبنات في مواجهة حياة بلا معيل.

ففي حين كانت تقدم الواقعية الاشتراكية بمفهومها الساذج والمشوه بطلاً ينتصر، وينخرط بعد ذلك في سكونية وفي استرخاء سعادة كاذبة، نجد الانتصار هنا، يقودنا إلى الغوص أكثر في مواجهة الموت.

ومسألة أُخرى، تفترق فيها هذه المجموعة عن قصص الواقعية الاشتراكية، وعن «حكايات» البطل الفلسطيني المطلق. فباستثناء شخصية «جبر» في قصة «مكان البطل» لا نجد أبطالاً إيجابيين. ان أكثر الشخصيات ايجابية هو بطل قصة «وانهار الجدار». إنه، في أعماقه، يدرك ذلك الخيار الصعب المفروض على الفلسطيني: الخيار بين موتين: الموت التافه لإنسان لم يحقق شيئاً في حياته، والموت البطولي، الذي نلمس إرهاصاته في هذه المجموعة، دون أن يتحقق.

إذا كان الانسان يحقق ذاته في ظروف البشر الآخرين، عبر مجموعة من الانتصارات تتوالى وتتجمع، لتخلق الانتصار الأكبر، فالفلسطيني سيظل مهزوماً حتى لحظة نصره النهائي. لهذا فهو يظل وسيلة لهدف كبير، ولن يصبح غاية في ذاته إلّا عندما تنغرس جذوره في أرضه، أي عند عودته النهائية اليها.

وهذا يعني أنه لا يحمل ذاكرة معبأة بالموت وحسب، بل يحمل الاستشهاد في ذاته كمصير.

هذا هو المشروع الصعب، المعقد والمؤلم، الذي حاولت هذه المجموعة الوصول إليه.

وهذا مشروع فريد. عليه أن يتجاوز، أو يتفادى المشاريع الجاهزة: الواقعية الاشتراكية، الوجودية، القصص العربية التقليدية الخ.. ليحرث في أرض جديدة بكر. وهو مشروع يحتاج إلى مران طويل والى الاكتشاف المتواصل.

وقد اكتفى ماجد بالبداية. لم تتح له ظروف حياته أن يستمر ليمتلك التقنية، والنفاذ إلى الأعماق. لهذا نجد أن معظم هذه القصص هي مشاريع روايات، اختزلت، وتحولت الى قصص قصيرة.

ان هذه القصص لا تقوم بذاتها، ولكنها محالة دوماً الى خلفيات قد يعرفها بعض